

أصول التفكير في رسائل النور

أميد شمشك *

ما رسائل النور؟

لقد تم وصف وتعريف كليات رسائل النور بأشكال مختلفة من ناحية المواضيع التي تناولتها واسلوب تناولها لهذه المواضيع. وقد عرفت رسائل النور بشكل واسع على انها تفسير للقرآن، كما ان المؤلف يبين ذلك في اماكن مختلفة من الرسائل ١ كما ان المؤلف يصف رسائل النور بأنها "كتاب علم الكلام" ٢ والى جانب ذلك، ورغم عدم وجود بيان للمؤلف حول ذلك فإن البعض يقول ان لرسائل النور علاقة بالتصوف، كما يوجد بعض - رغم قلتهم - يريدون سحبها لبعض المجارى السياسية احياناً .

وإذا تناولنا رسائل النور ككل فإنه من الصعب حقاً وضع رسائل النور ضمن نظام واحد. وإذا كنا سنتناول رسائل النور كتفسير للقرآن فإنها ما عدا إشارات الاعجاز يجب ان تتناولها تفسيراً له ميزات خاصة به؛ من ناحية المنهج، والمحتوى، والتأليف، والاسلوب وما إلى ذلك. فمثلاً يقوم بجولة علمية وتفكيرية في الآفاق التي تفتحه الآية الكريمة الموجودة في مستهل كل بحث، لا تجدها في اي تفسير آخر لدى تفسير الآية المذكورة. والمواضيع التي يتم تناولها خلال هذه الجولة هي على الاكثر داخل علم الكلام. لكن هذا ليس على وفق بتصنيف علم الكلام التقليدي، وانما باسلوب خاص برسائل النور، وربما يكون ذكر رسائل النور بأنها تحمل خواص التفسير وخواص علم الكلام معاً. لكن يجب الوقوف عند الاسلوب الخاص والأسس التي تشكل اساس هذا الاسلوب قبل ذلك.

أسس رسائل النور

يبين بديع الزمان سعيد النورسي ان رسائل النور بنيت على اربعة اسس هي: العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر ٣ وكون العجز والفقر، اللذان يعينان حالة معرفة الانسان لعجزه وحاجته المطلقة تجاه خالق الكائنات، هما أيضاً قد بحثا من مختلف النواحي في البحوث المتعلقة بالتفكير الانفسي في رسائل النور، لذا لن يكون من الخطأ إرجاع هذين الأساسين أيضاً للتفكير، أما الاساس الثالث وهو الشفقة فقد وضحت حقيقتها في الرسائل ، وما هي إلا جعل اىصال ثمار التفكير في رسائل النور غاية للحياة. ٤

وبعد تعيين وضع الاسس الثلاثة الاخرى، فإن الاساس الرابع المتبقي أي التفكير، يظهر أمامنا أنه أهم أساس لرسائل النور. وهذا الاساس هو بنفس الوقت اهم خاصية تشكل حياة بديع الزمان. فقد بدأ تفكر رسائل النور بالانتعاش في عقل مؤلفها منذ شبابه، ونضح في اواسط عمره، وإن المشوي النوري الذي يشكل نواة قسم مهم من رسائل النور اعطى نتيجة سلسلة تفكر مكثفة جداً، حيث كانت هذه المرحلة هي مرحلة التحول من سعيد القديم الى سعيد الجديد. هذا التفكير يشكل جميع حياة بديع الزمان بجميع صفحاتها ويتطور ويتسع من الزمن ويقوم بدعوة رسائل النور بكليات رسائل النور.

التفكير في رسائل النور

إن عالم الوجود بأسره هو لوحة تفكر في عين بديع الزمان. والقصد من خلق الموجودات صاحبة الشعور هو قيامها بوظيفة التفكير. وإن بديع الزمان الذي يطالع العالم على شكل دائرتين ولوحتين، ويرتب ذلك على الشكل التالي:

"احدهما : دائرة ربوبية في منتهى الانتظام وغاية الروعة والهيبة ولوحة صنعة بارعة الجمال وفي غاية الاتقان.

والأخرى : دائرة منورة مزهرة للغاية، ولوحة تفكر واستحسان وشكر وإيمان في غاية الجامعية والسعة والشمول" ٦

ومن هذه اللوحات لوحة الصنعة والابداع، يعني التزيينات اللانهائية التي أظهرتها دائرة الربوبية، وهي تجلب الى جانب ذلك وظيفة التفكير اللانهائي، وليس للانسان والجن فقط، بل إن خلق اجناس الملائكة التي لا حصر لها ووجودها الروحاني، تأتي في مقدمة هذا السر ٧ لكن للانسان مكان لا مثيل له بين المخلوقات باعتبار القابلية التي يملكها. وذلك لأن غاية التفكير هي مشاهدة الامور الخارقة في الأثر، ووزنها كل على حدة، والانتقال منها الى جمال الصانع، وكماله، وجلاله، وسائر صفاته القدسية، والاعجاب به، وحبه والاشتياق الى المثل بين يديه والتعرض للطفه^٨

"نعم، ان الانسان مع جهالاته وظلماته له استعداد جامع كأنه انموذج مجموع العالم، وأودع فيه امانة يفهم بها الكنز المخفي ويفتحه. ولم يُحدد قواه، بل أرسلت مطلقة فيكون له نوع شعور كلي بشعشة كمال حشمة جلال سرادق جمال عظمة الوهية سلطان الازل. وكما ان الحُسن يستلزم نظر العشق، كذلك ربوبية النقاش الازلي تقتضي وجود نظر الانسان بالتقدير والحيرة والتحسين والتفكر، وتستلزم ايضاً بقاء ذلك المتفكر المتحير الى الابد ورفاقته لما تحير فيه في طريق أبد الآباد"^٩

يوضح بديع الزمان "الامانة المودعة في الانسان، في اماكن اخرى من رسائله بأنها "أنا" ويقول ان الانسان بواسطة هذه الامانة يفهم صفات وشئونات خالقه ١١٠ كما ان هذه الامانة ادت الى جعل الإنسان اعلى من الملائكة ١١ ومن طرف آخر فإن النفس "المتنعمة باللطف الالهي"^{١٢} هي سبب الاستعلاء على الملائكة ١٣ "وخاصة في جهة الذوق بالرزق فإن الانسان يفهم كثير من الاسماء الحسنی مالا يمكن للملائكة الذوق بها"^{١٤}

وهكذا، فإن الإنسان المرسل الى هذا العالم والمزود بقابلية اعلى من المخلوقات الاخرى: هو مثل الشخص الفريد المدعو الى معرض، سيطوف الكائنات من اولها لآخرها فكراً، وسيدقق كل اثر امامه، ويحل الدقائق المتقنة فيه، ويستمع الى شهادات جميع الموجودات فرداً فرداً وجماعة، ويفهم عباداتهم وتسييحاتهم، ومثل قائد يقدم القطعة باسم وحدته، ويقدم عبادة وتحيات المخلوقات المسخرة له باسمهم الى العزة الالهية. وهذه الامور تتحقق نتيجة نشاطات تفكيرية كثيفة ومستمرة ١٥ وقد بينت الآية الكريمة ١٦ ان الانس والجن لم يخلقوا إلا للعبادة لكن هذه العبادة ليست دون روح وعبرة عن شكل ومراسيم بل هي توجب الايمان به بشكل يعرف المعبود، وتوجب معرفته والمحبة اللامتناهية في هذه المعرفة، وتضع أمامنا اسمى غاية للخلق ١٧ ورسائل النور تسعى للوصول الى هذه النتيجة بالتفكر الذي هو اهم اساس لها. ونتيجة هذا التفكير لا تظل بدرجة النظرية والمعرفة التي تسلم بوجود الله وبوحدته فقط، بل تتخذ هدف السكينة الذي ينفذ الى جميع صفحات حياة الانسان، يعني تهدف الى وجود، ومعرفة، وحس، وجود الله، ووحدته واسمائه الحسنی، وصفاته الجليلة في كل مكان وبكل شئ وحادثة، والعيش داخل هذا الشعور:

"فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر الى الكائنات انها مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وانها مظاهر لتجليات الاسماء الحسنی كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. اي انه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمي من ان تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائم على نهج القرآن الكريم. فيجد الى الحق سبحانه طريقاً من كل شئ"^{١٨}

ويبين بديع الزمان في مكان آخر انه يمكن اكتساب هذا النوع من السكينة بقوة الايمان الحقيقي، وبالتفكر الايماني في المصنوعات الذي يؤدي الى نتيجة معرفة الله^{١٩}

أنواع التفكير:

إن رسائل النور تضع أمامنا ذخيرة غنية من زاوية منهاجها التي تتبعه في التفكير. وذلك لأن الكائنات كتبت ونظمت

مثل معرض فني محتشم وكتاب كبير؛ وهناك طرق كثيرة لقراءة هذا الكتاب ولتدقيق الآثار الموجودة في المعرض. وكون هذا الموضوع يشكل موضوع دراسة منفصل ومفصل، فإننا سنكتفي بتصنيف يسلط الضوء على اسلوب التفكير لرسائل النور. إن التفكير في رسائل النور يتحرك وفق اساسين؛ آفاقي، وأنفسي. وقد جعل الإجمال في الأول، والتفصيل في الثاني أساساً ٢٠

التفكير الآفاقي

إن رسالة "الآية الكبرى" التي تتناول مشاهدات سائح يسأل عن خالقه في الكائنات مليئة بالأمثلة الغنية للتفكير الآفاقي في رسائل النور ٢١ وتم في هذه الرسالة دراسة جميع الموجودات في الكائنات بعالمها المشاهد وغير المشاهد، وشهادتها على وحدة خالق الكائنات في ثلاثة وثلاثين مرتبة منفصلة. ففي القسم الاول من الكتاب يتناول بالدرجة الاولى إثبات وجوب الوجود، ويتبعه موضوع التوحيد. وفي الموضوع الثاني يتناول الكائنات ككل من مختلف الزوايا، ويعطي ثقلاً لموضوع التوحيد. وهذه الاصول المتبعة في رسالة الآية الكبرى بشكل واسع تمثل الاسلوب العام لرسائل النور. ويمكن ان نلخص هذه الاصول على الشكل التالي: "إن الوضع الذي يشاهد في الوجود او حادثة، يتناول مع زمائله في الكائنات، وتدرس الحادثة من زاوية نظر واسعة وسع الكائنات". ويجب ان يكون هذا هو المقصود من الإجمال في التفكير الآفاقي. وبهذا يمنع تشتت الأفكار بكثرة الدوائر، وتصير كل حادثة نشاهدها في الكائنات برهان على معرفة الله بقوة الكائنات ووسيلة للسكينة والإطمئنان.

ويبين بديع الزمان هذه الحقيقة في بداية الشعاع الثاني بقوله: "إن الجمال الالهي والكمال الرباني يتظاهر في التوحيد والوحدة" ويذكر امثاله. "ومثالاً: ما ان يُنظر الى الشفاء من مرض عضال، بنظر التوحيد يتجلى جمال شفقة الرحيم تجلياً باهراً كاملاً على وجه إحسان الشفاء الى جميع المرضى الراقدين في المستشفى الكبير المسمى بالارض وإسعافهم بأدوية ناجعة وإغاثتهم بعلاجات شافية تؤخذ من الصيدلية العظمى المسماة بالعالم. ولكن هذا الفعل الجزئي - منحة الشفاء - المتسم بالعلم والبصيرة والشعور إن لم يُنظر اليه بنظر التوحيد، فان الشفاء يسند الى خاصيات الادوية الجامدة والى القوة العمياء والطبيعة الصماء. فتفقد تلك المنحة الرحمانية ماهيتها وحكمتها وقيمتها كلياً" ٢٢

ويتبع بديع الزمان نفس الاسلوب في الشعاع الرابع، ويجعل الأرض كروضة صغيرة في خياله. ويشاهد في هذه الروضة جمال الرحيمية تغذي جميع الرضع في هذه الروضة بحليب امهاتهم، وجمال الرحمانية في إرزاق جميع الاحياء، وجمال الحاكمية في خلق جميع الموجودات بحكمة، وجمال عدالة التناسب الحاكم في خلق جميع الموجودات، وجمال الحافظة في الخلق المجهز بالاجهزة التي تحافظ على استمرار حياة الموجودات، وجمال الكريمة المتشكلة في مظهر الإكرام اللائق بجميع المخلوقات ٢٣ والحقيقة إن هذه المناظر تشاهد بالعين الخيالية، لكنها ليست خيالاً وإنما هي الحقيقة ذاتها. لان الذي يقال هو ما يجري حولنا من الأحداث في كل لحظة سواءً شاهدناها أم لم نشاهدها. لكن الاعين العضوية غير كافية للاحاطة بهذا المنظر، لذلك فإن القسم المتبقي من اللوحة سيتمم بمساعدة قوة الخيال وبواسطة التفكير.

وبعد التوصل الى وجهة النظر هذه، تشاهد جميع الافعال في فعل واحد، وجميع الآثار في أثر واحد، وجميع الاسماء في اسم واحد. وإن مشاهدة تجلي اسم من الاسماء الحسنى في الموجودات ينقل الفكر إلى مسميات جميع الاسماء المتجلية في الكائنات ٢٤ وبعد ذلك فإن موجوداً واحداً وحتى ذرة واحدة تقوم بفعل جميع الكائنات. وذلك لأن هذه الذرة لوحدها تعرّف وتثبت الحق سبحانه تعالى بصفاته الجليلة وذاته المقدسة ٢٥

وعندما تصير الكائنات بجميع موجوداتها بحالة وسيلة لمعرفة الله، فلن تحصل الحاجة الى ترك دوائر الكثرة من اجل

كسب السكينة وحصول التوحيد. بل العكس إن الفرصة التي تفقد بترك دوائر الكثرة، تقوم بخدمة مهمة في تفكر رسائل النور: "ان رسائل النور تبين أن الموجودات قاطبة انما هي مظاهر لتجليات الاسماء الحسنی بحيث لا تدع مجالاً للغفلة قط. فلا شئ يكون حائلاً دون السكينة والاطمئنان. لذا تكسب قارئها مرتبة واسعة من الاطمئنان سعة الكون كله وتفتح امامه دائرة عبودية واسعة ودائمة سعة الكون ايضاً، فهي لا تشبه مسلك اهل الطرق الصوفية الذين يسعون للحصول على الاطمئنان والسكينة بافكارهم وجود الكائنات أو تناسيها "كما في وحدة الوجود ووحدة الشهود" ٢٦

التفكر الانفسي

ومثل هذه الحالة توجد ايضاً في التفكر الانفسي. إن العناصر التي تشاهد كعوائق للسمو المعنوي هي بشكل عام الأناية والنفس، تظهر أمامنا كأهم الوسائل لمعرفة الله في رسائل النور. وليس من الممكن تلاقي العامل الذي سيجلبه الشعور الاناني في هذا الموضوع بأي شئ آخر. لأن صفات الخالق الذي كُلفنا بمعرفته هي صفات مطلقة وغير محدودة ولا مثل لها. وإذا بدأت الأناية بهذه المقايسة الابتدائية بالقول "كيف صنعت هذا فان الله صنع الكائنات"، وإذا لم تكن هناك تشبيهات تنتج بسلاسل تصل الى اعلي المراتب، فلن تبق لدينا أية إمكانية للتفكر بتجليات وآثار وصفات الخالق القادر على كل شئ، والذي يفعل ما يريد ٢٧ لذا القرآن والسنة تعلمنا صفات وشئون خالق الكائنات بهذا الاسلوب. فمثلاً إن عدم سماح الله بالشرك تشرح لنا في الآية الكريمة بإعطاء "مثال من أنفسنا"، ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيما نكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء. ٢٨. وقد بين عدم قبول الحاكمية للمنافسة هنا بإعطاء مثال من الحاكمية والملكية النسبية والظاهرة للانسان. وقد جاء في الحديث: "الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال ارجع الى الى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده" ٢٩

والنفس هي مثل الأناية وسيلة مهمة بيد الانسان لمعرفة الله. وحتى كما بينا أعلاه فهي باعتبار تجلياتها التي تظهر لها سبب للرجحان على الملائكة. ويتخذ بديع الزمان طراز حياة الصحابة نموذجاً له، وبدل ان يقتل النفس او يجعلها دون تأثير، فإنه يرجح طريق استخدامها كجندي بقيادة القلب ويسوقها للعبادة الخاصة بها ٣٠

وعند إضافة خاصيتين للانسان - مثله مثل الموجودات الاخرى - وهي تشكيله مرآة للأسماء الالهية، وقيامه بوظيفة المرآة للصفات المنزهة لخالقه، وذلك بصفاته الناقصة، تتضح ثلاث جبهات للتفكر الانفسي ٣١ مع العلم أن اسس العجز والفقر تشكل اسس التفكير في رسائل النور كصفات ناقصة للانسان. وهذه الاسس تعمل وظيفة الصمام الامنى تجاه الاخطار التي يمكن ان تأتي من جهة الأناية والنفس:

"ان هذا الطريق هو اقصر واقرب من غيره، لانه عبارة عن اربع خطوات. فالعجز اذا ما تمكن من النفس يسلمها مباشرة الى "القدير" ذي الجلال. بينما اذا تمكن العشق من النفس - في طريق العشق الذي هو انفذ الطرق الموصلة الى الله - فانها تتشبث بالمعشوق المجازي، وعندما تري زواله تبلغ المحبوب الحقيقي.

ثم ان هذا الطريق اسلم من غيره، لان للنفس فيه شطحات او ادعاءات فوق طاقتها، اذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز والفقر والتقصير كي يتجاوز حده" ٣٢

وكما ان بديع الزمان يؤيد التفصيل في التفكير الانفسي، ويرى ان هذا الطريق هو أقصر من طريق التفكير الآفاقي وقطعي ايضاً. حتى انه عندما يعرف النتيجة التي يتم التوصل اليها بالتفكر الآفاقي قطعية تبلغ مرتبة علم اليقين، بينما نجده يعرف النتيجة التي يتم التوصل اليها بالتفكر النفسي بمرتبة حق اليقين. وقد قام المؤلف باضافة قسم بعنوان "شهادة الماهية الانسانية"

الى خلاصة الخلاصة التي هي بماهية خلاصة بالعربية للآية الكبرى التي تشكل مثلاً في التفكير الآفاقي. ويبين اسباب هذه الإضافة في احد مكاتيب اميرداغ على الشكل التالي:

"نعم ، ان الكون العظيم يكون امامي بمثابة حلقة ذكر في اثناء قراءتي لخلاصة الخلاصة، ولكن لان لسان كل نوع من الانواع واسع جداً، يتحرك العقل عن طريق الفكر كثيراً كي يدعن بالاسماء الالهية وصفاتها بعلم اليقين، وبعد ذلك يتمكن أن يبصر ذلك بوضوح. وعندما ينظر الى الحقيقة الانسانية، في ذلك المقياس الجامع، في تلك الخريطة المصغرة، وفي ذلك النموذج الصادق، وفي ذلك الميزان الصغير، وفي ذلك الشعور بالانانية ، فانه يصدق تلك الاسماء والصفات بإيمان واطمئنان ووجدان جازم شهودي واذعاني وبسهولة ويسر.. ٣٣"

ويبين في دوام البحث ان التفكير الانفسي بدرجة حق اليقين وأنها وسيلة للتوصل الى مرتبة إيمانية بعيدة عن الشبهة والوسوسة.

مصدر التفكير

إذا وجب وضع التفكير في رسائل النور بمكان ما، فإنه يوجد تشابه أحياناً بينها وبين التيارات الفكرية في العالم الاسلامي. ويمكن ان نشاهد في بعض وجهاتها أثر للتصوف، ومنهج الكلام، وحتى الفلسفة. وإذا وضعنا بعين الاعتبار ان بديع الزمان قام بنشاطات علمية مكثفة منذ شبابه المبكر، وأنه الانسان السريع البديهة، والذكي والمثقف، يتضح انه ليس من الممكن ان لا يتأثر بالكتب التي قرأها، والافكار التي تعرف عليها. لكن يتضح من آثاره ان بديع الزمان لم يطمئن في أي من هذه السبل، بل نصب عينيه الى الاعلى، وبدأ يبحث في طريق مختلف، ويتبين ذلك من آثاره التي كتبها اول ما مسك القلم بيده. فمثلاً يقيس طرق معرفة الله في كتابه المحاكمات العقلية الذي هو من اول آثاره ويرجح بينها على الشكل التالي:

"ان اصول العروج الى عرش الكمالات وهو معرفة الله جلّ جلاله اربعة:

أولها: منهاج علماء الصوفية ، المؤسس على تركية النفس والسلوك الاشرافي.

ثانيها: طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والامكان.

هذان الاصلان وإن تشعبا من القرآن الكريم، إلا ان فكر البشر قد افرغهما في صور اخرى فاصبحتا طويلة وذات مشاكل.

ثالثها: مسلك الفلاسفة.

هذه الثلاثة ليست مصنونة من الشبهات والاهام.

رابعها: المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة ، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو اقصر طريق واوضحه واقربه الى الله واشمله لبني الانسان . ونحن قد اخترنا هذا الطريق "٣٤"

وقد استمر بديع الزمان في دعواه هذه فيما بعد طوال حياته، وكررها في آثاره مراراً وتكراراً، ويبين ان رسائل النور تستند على القرآن فقط اخذت الهامها منه، وإنما نشاهد حقاً أنها تعكس بعض الخواص في الاسلوب القرآني. ويمكن ان نعد من بين اهمها ما يلي:

١- إن الأدلة التي يسردها القرآن أمامنا لإثبات حقائق الإيمان وعلى رأسها وجوب الوجود والوحدة، هي اجزاء العالم الذي حولنا والحياة التي نعيشها: الطيور، والاغنام، والغيوم، والجبال، والبحار، والعنب، والنخل، والزيتون، والنمل، والذباب،

والقمر، والشمس، والسّمك "الحوت" والعظام الرميمة، والفاكهة الناضجة وغير الناضجة، والعيون والأذان، والمراكب التي نركبها في السفر، وغيرها، وجميعها من الأشياء التي ألفها الإنسان في جميع العصور. ويستخدم القرآن جميع هذه الأمور من الأدلة التي استخدمها القرآن لمعرفة الله. وإن مواد التفكير في رسائل النور ليست سوى ذلك.

٢- وقد اتبعت رسائل النور الطراز القرآني الذي يدعو الناس للتفكر ويعرض لهم الشواهد العقلية للدعوات من البداية حتى النهاية، والذي يبين أن التقليد هو أساس قبيح. ويبين بديع الزمان أن البراهين المنطقية والحجج العلمية في رسائل النور تأخذ مكان السلوك والأوراد في التصوف ٣٥

٣- القرآن يخاطب جميع الموجودات. وقد اختار بديع الزمان هذا الأسلوب وخاصة بعد مرحلة بارلا، ولم يختر مخاطبيه من زمرة مختارة، بل خاطب جميع البشر، والدور الذي سيلعبه في تعيين درجة استفادة الشخص من الكتاب بمستوى المعرفة والفهم موضوع آخر- مثل الاستفادة من القرآن بالضبط.

٤- وكما بينا في المادة الثانية أنه إلى جانب مشاركة رسائل النور علم الكلام خاصية أساسية، إلا أنها تنفصل عن علم الكلام في هذا الموضوع وتتخذ القرآن نموذجاً لها، وهذه قضية أسلوب. وعندما يشرح أسلوب تجلي الموجود الجزئي أو الحادثة إلى جانب الموجود الكلي أو الحادثة الكلية، لا يمكن أن نشاهد في كتب علم الكلام هذا الأسلوب الذي استخدمته رسائل النور:

"إن لكل اسم من الأسماء الحسنى جمالاً خاصاً به، جمالاً مقدساً منزهاً، بحيث أن جلوة من جلواته تجمل عالماً ضخماً بكامله، وتلقي الحسن والبهاء على نوع لا يد.

فكما تشاهد جمال اسم من الأسماء في زهرة واحدة، فالربيع كذلك زهرة والجنة كذلك زهرة لا يراها النظر.

فإن كنت تستطيع أن تنظر إلى الربيع، كل الربيع، وترى الجنة بعين الإيمان، فانظر وشاهد لتدرك مدى عظمة الجمال السرمدى.

فإن قابلت ذلك الجمال الباهر بجمال الإيمان وبجمال العبودية تكن أحسن مخلوق وفي أحسن تقويم ولكن إن قابلت ذلك الجمال بقبح الضلالة غير المحدودة، وقبح العصيان البغيض، تكن أقبح مخلوق وأراداًه، وابعض مخلوق معني لدى جميع الموجودات الجميلة" ٣٦

هذه التعبيرات "لا تبق هامة كما هي في الكتاب" بل تحمل طاقة تحرك كوامن الإنسان عندما يقرأها، ويتضح ذلك من العبارات نفسها، ومن التأثير الحاصل على الذين يقرأون رسائل النور. وعدد العلماء المسلمين الذين اختاروا هذا الأسلوب المشابه ليس بالقليل؛ ويتضح أيضاً أن القرآن هو مصدر هذا الأسلوب الأصلي الذي اتبعته رسائل النور. وتأثير هذا الأسلوب على الضمائر، ليس سوى دليل على الإعجاز القرآني الممتد على مر العصور ووراء القارات ٣٧

٥- وكما أن القرآن يخاطب جميع طبقات البشر، فإنه يخاطب الإنسان ككل. وبخطابه لم يتلق العقل أو القلب الفيض فقط، بل تتلقى جميع إحاسيس الإنسان ووجوده الفيض. وقد اتبعت رسائل النور هذا الأسلوب. وكما بين بديع الزمان "إن العقل، والقلب، والروح، والنفس، والحس تأخذ حصتها من الحقائق التي هي بحكم الغذاء والطعام في رسائل النور. وإلا فإن العقل يأخذ حصة جزئية، وتبقى الأحاسيس الأخرى دون غذاء" ٣٨

"فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم" أي رسائل النور "أذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضاً مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية" ٣٩

"ثم ان الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وادلته ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الاولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته.. وانما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معاً وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الاخرى، فتحلّق الى اوج العلا وتصل الى مراق لا يصل اليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن اقدمها وخطواتها، فتبين انوار الحقائق الایمانية وتوصلها الى عيونها المطموسة" ٤٠

ويربط المؤلف سبب عدم الملل من بحوث التفكير في رسائل النور التي تقرأ مراراً وتكراراً بهذه الخاصية من القرآن ٤١

٦- إن القرآن الكريم الذي انزل على من هو رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم ٤٢ وبالؤمنين رؤف رحيم ٤٣ والذي انزل هدى ورحمة لقوم يؤمنون ٤٤ يعرفنا في الصفحة الاولى برب العالمين باسمه الرحمن والرحيم. فإنسان اليوم هو مخلوق ميال لمعرفة ان الله قوي ذو عقاب منذ طفولته وذلك بسبب تلقينات البيئة، فهو بحاجة الى الرحمة الالهية اكثر من اي وقت آخر، وإن رسائل النور تتبع نفس الاسلوب في معرفة الله. فقد اتخذت الامل بدل اليأس والتبشير بدل التنفير اساساً لها. حتى انها تشبه مخافة الله بلجوء الطفل الى حضن امه المليء بالشفقة ٤٥ وهذه الخاصية التي لا شك انها جاءت من القرآن تدل على مظهرية اسماء الرحمن ٤٦ والرحيم ٤٧ والرؤف ٤٨ في رسائل النور.

ما رسائل النور؟

وبعد هذه الايضاحات، وعندما نعود الى السؤال الذي طرحناه في البداية، ربما نكون بمواجهة الحاجة الى وضع اسم جديد لتفكر رسائل النور. والحقيقة انه إذا نظرنا بجانب ما، نجد هذا التفكير يشبه التصوف، وبجانب آخر يشبه علم الكلام. وكما بينا سابقاً ان ذلك يمكن ان يكون قد حدث بسبب تأثر المؤلف بهما معاً، ويمكن ان يكون ذلك كنتيجة طبيعة لبشريته وثقافته العالية. ومن طرف آخر فإن بيانات المؤلف تشكل تناقضاً مع هذه الخصوص في بعض الأحيان. فمثلاً إن كلام بديع الزمان "الزمن ليس زمن الطريقة وانما زمن الحقيقة ٤٩ كما ان رسائل النور مليئة بالبيانات التي تدل على انها ليست طريقة، ولا تترك اية شبهة في هذا الموضوع ٥٠ وإنما نصادف تعبيراً مختلفاً في هذا الموضوع في احد مكاتيب اميرداغ:

"لقد كنت اقول : ان هذا الزمان ليس زمان الطريقة، فالبدع تحول دون ذلك، فكراً في حقائق الايمان وحدها. ولكن الزمان اظهر انه يلزم لكل صاحب طريقة - بل الألزم له - ان يدخل دائرة رسائل النور التي هي اوسع الطرق وتضم خلاصة الطرق الأثني عشرة المهمة ضمن دائرة السنة النبوية الشريفة. حيث ان الذي غرق في الخطايا والذنوب من اهل الطريقة لا يلج في الالحاد بسهولة ولا يقهر قلبه. ولهذا فهم لا يتزعزعون ابداً فيمكنهم اذن ان يكونوا طلاب رسائل النور حقاً، بشرط الأ يدخلوا - حسب المستطاع - في البدع ولا يرتكبوا الآثام التي تحول دون التقوى وتجرحها." ٥١

لكننا على قناعة انه يجب عدم استخراج نتيجة من هذا الكلام بأن رسائل النور هي طريقة صوفية تضم جميع الطرق الاخرى. وربما يكون فهمنا لرسائل النور على الشكل التالي يكون اصح:

١- إن رسائل النور توصل الى النتيجة المنتظرة من الطريقة الصوفية بأقصر طريق بواسطة الولاية الكبرى وورثة

النبوة ٥٢

٢- إن رسائل النور لم تشكل حركة منفصلة مثل الطرق الاخرى او الجماعات، بل هي اثر يستطع العموم الاستفادة منها، الى اي طريقة او جماعة او مدرسة كان ينتسب ٥٣

والحقيقة إننا نشاهد ان الاوراد والاذكار تحتل مكانة مهمة في حياة مؤلف رسائل النور مثل اهل الطريقة. لكن الى جانب كون هذه الاذكار والاوراد ذات مقصد تفكري وتعطي سبباً لانكشاف كثير من الحقائق في رسائل النور، فهي لم تقم

بتكليف طلبة رسائل النور بأوراد واذكار معينة عليهم ان يتبعوها. إن اوراد رسائل النور المستندة على أساس العجز والفقر والشفقة والتفكر هي : ١- اتباع السنة، ٢- اداء الفرائض، ٣- الابتعاد عن الكبائر، ٤- تعديل الاركان في الصلاة، ٥- التسيحات بعد الصلاة. وإنما لم نشاهد او نصادف اي ورد او ذكر سوى تسيحات الصلاة ٥٤

ومن طرف آخر، فإن رد بديع الزمان بشكل واضح لموضوع حسن الظن الزائد بالمرشد والذي يقبله اهل الوسيلة واهل الطريقة ٥٥ هو من الخواص المهمة التي تفصل بين رسائل النور والتصوف ٥٦.

ومقابل ذلك فإننا نشاهد ولو بقدر محدود الكرامات والإشارات الغيبية في رسائل النور. حتى ان هناك بعض الرسائل الف بهذا الخصوص بشكل مستقل كالشعاع الاول والثاني. والرسائل "المكاتيب" التي كتبها تلاميذه وسيرته الذاتية تحتوي على عدد غير قليل من الكرامات التي تنسب الى بديع الزمان. ورغم ان المؤلف لم يولي اهتماماً للكرامات، وعدّل باصرار حسن الظن الزائد بحقه من طرف تلاميذه ورغم البيانات التي تبين ان رسائل النور هي منهج الحقيقة، فإن اهم سبب لوجود مثل هذه الحالات الموجودة بين طلبة رسائل النور ورسائل النور، ربما يكون الحاجة الى الدعم المعنوي لاهل الخدمة في تلك المرحلة التي زادت فيها الضغوط. كما يجب ان لا نضع الاهتمام الزائد للناس بالكشف والكرامات وغيرها من الامور الخارقة بعيداً عن الانظار. وفي حركة تشمل جميع قطاعات المجتمع كرسائل النور، لا بد ان نشاهد انعكاسات هذه الميول. وإن امزجة بعض الاشخاص ذات مشرب الطريقة الموجودين بين متقدمي طلبة رسائل النور زمن المؤلف وفي زماننا لعبت دوراً مهماً بهذا الخصوص، ولا تزال تلعب هذا الدور.

ومهما كان فإن كلمات بديع الزمان التالية ستقول آخر كلمة في هذا المجال، وتحمل صفة توضيح وضع رسائل النور: "ان ما نراه من حصيلة خدمتنا وجهودنا في ترسيخ الايمان وتحقيقه في قلوب الوف المؤمنين - حوالي ولاية اسبارة - لكاف لخدمتنا هذه ، بحيث لو ظهر من هو بمرتبة عشرة أقطاب من الأولياء الصوفية ، واستطاع سوق ألف من الناس الى مراتب الولاية فان عمله هذا لا ينقص من أهمية عملنا وقيمه ولا من ثمراته شيئاً. لذا فان طلاب رسائل النور الحقيقيين واثقون كل الثقة ومطمئنون كل الاطمئنان بمثل هذه النتائج وحصيلة الاعمال هذه اذ ان القناعة القلبية لدى مريدي ذلك القطب العظيم يحققها ويضمنها المقام الرفيع لاستاذهم ومرشدهم، ويضمنها أحكامه في المسائل ، الأ رسائل النور تشئ لدى طلابها درجة من القناعة أكثر بكثير مما عند مريدي ذلك القطب العظيم ، بما فيها من حجج قاطعة تسري الى الآخرين فتنفعهم أيضاً، بينما تبقى قناعة اولئك المريدين خاصة بهم وحدهم. اذ ان قبول أقوال الشاخص العظام بغير دليل لا يفيد اليقين والقطعية - في علم المنطق - بل ربما تكون قضية مقبولة يقتنع بها الانسان بالظن الغالب. اما البرهان الحقيقي - كما هو في المنطق فلا ينظر الى مكانه الشخص القائل وانما الى الدليل الذي لا يُجرح.

فجميع حجج رسائل النور هي من هذا القسم، اي من "البرهان اليقيني" لأن ما يراه اهل الولاية من الحقائق بالعمل وبالعبادة وبالسلوك وبالرياضة الروحية، وما يشاهدونه من حقائق الايمان وراء الحجب ، فان رسائل النور تشاهدها مثلهم ايضاً، إذ شقت طريقاً الى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلاً الى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والاوراد ضمن براهين منطقية وحجج علمية ، وكشفت طريقاً مباشراً الى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة ضمن علم الكلام وعلم العقيدة واصول الدين؛ بحيث انتصرت على الضلالة الفلسفية التي تغلبت على تيار الحقيقة والطريقة في هذا العصر . والشاهد هو الواقع" ٥٧

ومن طرف آخر تظهر أمامنا فروق بين علم الكلام ورسائل النور. فقبل كل شئ ان المؤلف يرى ان الطريق الذي يتبعه اهل علم الكلام وادلته تطيل الطريق وبعيدة عن الإجابة على الاحتياجات، او انه يرى انها لا تتعدى مخاطبة العقل ٥٨ وإلى

جانب ذلك فإن ١- أكثر المواضيع التي تناولتها رسائل النور، ٢- واتباعها طريق إثبات الحقائق الايمانية بصورة الاستناد على الدليل، يقربها من علم الكلام. ونستطيع القول ان النقط المشتركة بين رسائل النور وعلم الكلام هي اكثر من النقاط المشتركة مع التصوف واكثر اساسية. حتى ان القول بأن الفرق بين رسائل النور والمتكلمين هو عبارة عن قضية الاسلوب لا تكون قد بالغنا في ذلك. وقد بين بديع الزمان ان مكان رسائل النور داخل علم الكلام:

"تذكرون في رسالتكم في رسالتكم رغبتكم في تلقي درس في علم الكلام مني. انتم يا اخي تتلقون ذلك الدرس فعلاً ، فما استنسختموه من "الكلمات" دروس منورة لعلم الكلام الحقيقي" ٥٩

"لقد انقادت طائفة المدارس الشرعية لطائفة التكايا والزوايا الصوفية منذ سالف العصور ، أي سلّموا لهم القيادة وراجعوهم للحصول على ثمار الولاية. وتحزّروا عندهم أذواق الايمان وانوار الحقيقة حتى كان عالم كبير من علماء المدرسة الشرعية يقبل يد شيخ ولي صغير من أولياء الزاوية الصوفية ويتبعه ، فطلبوا ذلك النبع الفياض بالماء الباعث على الحياة في التكايا والزوايا.

بينما أظهرت رسائل النور بالمعجزة للقرآن - كما هو مائل امامكم - ان في المدارس الشرعية ايضاً طريقاً قصيرة توصل الى انوار الحقيقة، وفي العلوم الايمانية ينبوع ثر هي أصفى وانقى من غيرها. وانه في العلم الشرعية، وفي الحقائق الايمانية وعلم كلام أهل السنة، طريقاً للولاية هي اسمى واحلى واقوى من العمل والعبودية والطريقة الصوفية" ٦٠

"وشقت رسائل النور طريقاً الى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلاً الى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والاوراد ضمن براهين منطقية وحجج علمية وكشفت طريقاً مباشراً الى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة ضمن علم الكلام وعلم العقيدة واصول الدين" ٦١ وإذا فصلنا مواضيع "الولاية الكبرى" و "وراثة النبوة" المذكورة اعلاه كموضوع نقاش آخر، فإن رسائل النور تظهر أمامنا كأثر علم كلام جديد، خاص، ومختلف باسلوب تفكر خاص بها.

وهذا الاثر كما بين المرحوم محمد عاكف استلهم من القرآن مباشرة، وقرأ في كتب الكائنات الكبيرة والصغيرة في الآفاق الواسعة للقرآن، وخاطب العقل والقلب معاً، وإن سلوب هذا الخطاب يحرك الطاقة الكامنة لدى الانسان وتجعل الايمان والاسلام يعالج في كل صفحة من صفحات الحياة اليومية، واثبت اصالته وتأثيره على الكتل البشرية.

إن رسائل النور التي تعد صاحبة منهج في تاريخ علم الكلام بأفق التفكير الذي فتحته امام إنسان القرن العشرين، وحتى القرن الواحد والعشرين، ولا شك انها تليق ان تذكر باسم خاص بها. وذلك لأنه بعد ان آتت بعلم كلام قرآني، ستعرّف الناس القرآن بشكل مباشر، ويوجد فيها استعداد يؤمن للناس فهم القرآن بشكل اكثر مما بينته رسائل النور.

* اوميد شمشك، باحث - كاتب: ولد عام ١٩٥٠ في اسطنبول. دخل ميدان الصحافة والنشر منذ شبابه الباكر. واعتباراً من عام ١٩٦٧ بدأ بالعمل في مجلات وجرائد مختلفة وعمل في جريدتي "يني آسيا" و"يني نسل" منذ انشائهما، لعب دوراً فعالاً في تأسيس مركز بحوث "يني آسيا" الذي فتح عهداً جديداً في تأسيس التمازج بين العلم والايمان اذ قام باصدار سلسلة العلم والتقنية واصبح مدير التنسيق في هذا المركز. يعمل الآن ككاتب مستقل، وهو ينشر مقالاته بشكل دوري في مجلة "ظفر" الشهرية، ومقالات غير دورية في صحف ومجلات اخرى. مؤلفاته المنشورة: الذرة. الانفجار الكبير او مولد الكون. مذكرات نحلة. تقنية البحث. الفضاء. الكواكب السيارة. المادة والطاقة. الدنيا. لتتعلم قرآنا. القرآن الكريم وشرح مقالة "لجنة". مناظرة مع الشيطان. تفسير دعاء "الجوشن الكبير" "هي احد الادعية المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في ضوء رسائل النور.

- ١ كليات رسائل النور "بالتركية"، مج ٢، إسطنبول، منشورات يني آسيا، ١٩٩٤-١٩٩٥ م. ص ٥٢٢، ٨٣١، ٨٨٣، ٩١١، ٩٣٢، ١٥٩٨.
- ٢ نفس المصدر، ١٥٢٤٧، ١٦٥٨، ١٧١٥٢.
- ٣ نفس المصدر السابق، ص ٢١٠-٢١١.
- ٤ نفس المصدر السابق، ص ٦٨٩، ٦٩٠، ١٤١٣، ١٧٠٨.
- ٥ نفس المصدر السابق، ص ١٦٥٨.
- ٦ الكلمات - بديع الزمان سعيد النورسي / ترجمة احسان قاسم ١٩٩٢ - إسطنبول
- ٧ كليات رسائل النور "بالتركية" ص ٢٢٥.
- ٨ كليات رسائل النور "بالتركية" ص ٤٧-٤٨، ١٤١-١٤٢، ١٣٤٢-١٣٤٣.
- ٩ المثنوي العربي النوري - سعيد النورسي / تحقيق احسان قاسم ص ٣١٠
- ١٠ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٢٤١، ٣١٦، ١٧٣٨.
- ١١ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٩٨.
- ١٢ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٧٥٨.
- ١٣ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٥٦.
- ١٤ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٨٢٥.
- ١٥ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٤٥-٤٨، ١٤١-١٤٢، ٨٩٢.
- ١٦ سورة الذاريات، آية ٥٦
- ١٧ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٤٤٨، ٨٥٩.
- ١٨ الكلمات ص ٥٦١ - سعيد النورسي - ترجمة احسان قاسم الصالحي، إسطنبول ١٩٩٢.
- ١٩ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٦٧٠.
- ٢٠ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٣٣٨.
- ٢١ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٨٩٨-٩٣٠.
- ٢٢ الشعاعات - سعيد النورسي - ترجمة احسان قاسم ص ٨
- ٢٣ المصدر السابق / ص ٨٩.
- ٢٤ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٥٠٤-٥٠٥.
- ٢٥ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٨٣٧.
- ٢٦ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٦٦٠.

٢٧ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٢٤١ وغيرها.

٢٨ سورة الروم، آية ٢٨.

٢٩ البخاري، الدعوات: ٣؛ مسلم، التوبة، ٣؛ الترمذي، الدعوات، ٩٨.

٣٠ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٢٢٠.

٣١ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٣١٥-٣١٦، ٨٢٦.

٣٢ الكلمات - بديع الزمان سعيد النورسي - ترجمة احسان قاسم ص ٥٦١

٣٣ الملاحق - بديع الزمان سعيد النورسي - ترجمة احسان قاسم ص ٢٨٤

٣٤ صيقل الاسلام- المحاكمات /بديع الزمان سعيد النورسي / تحقيق احسان قاسم ص ١٢٢

٣٥ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٨٨١

٣٦ الشعاعات - بديع الزمان سعيد النورسي - ترجمة احسان قاسم - ٩١

٣٧ ونود ان لا نترك الموضوع دون تناول سؤال يخطر على الذهن: إن الاثر الذي يكتبه البشر يكون له بريق وانعكاس على المجتمع، فلماذا لم يؤثر القرآن على حياتنا بهذا الشكل؟ إن جواب هذا السؤال حسب قناعتنا، هو اننا ابعدنا القرآن عن حياتنا بأيدينا. ولو لم نكتف بقراءة القرآن في المقابر وعلى الموتى كما عبر محمد عاكف عن شكواه، وقرأناه لانفسنا، فإننا لن تتأخر عن مشاهدة معجزاته الابدية بشكل واضح. كما ان بديع الزمان يشارك محمد عاكف في شكواه حيث يقول: "كونه بقي بدرجة المبارك الذي يتبرك بتلاوته". "كليات رسائل النور، ٢٠٤٦-٢٠٤٧". وإذا وصفنا رسائل النور بأنها ثمرة هذه الشكوى لن نكون مخطئين.

٣٨ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٧٠٣.

٣٩ المكتوبات-بديع الزمان سعيد النورسي/ ترجمة احسان قاسم - ص ٤٥٩

٤٠ الملاحق /قسطموني -سعيد النورسي/ ترجمة احسان قاسم / ص ١٠٥

٤١ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٧٤٦.

٤٢ سورة الانبياء، آية ١٠٧

٤٣ سورة التوبة، آية ١٢٨

٤٤ سورة الانعام، آية ١٥٧. سورة الاعراف، آية ٥٢، ٢٠٣. سورة يونس، آية ٥٧. سوره يوسف، آية ١١١. سورة

النحل، اية ٨٩ سورة الإسراء، آية ٨٢. سورة القصص، آية ٨٦. سورة العنكبوت، آية ٥١. سورة لقمان، آية ٣. سورة الجاثية، آية ٢٠.

٤٥ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١١٠، ١٥٦-١٥٧، ١٣٥٥.

٤٦ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٨٤٣.

٤٧ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٨٤٣، ٤٤١، ٣٤٥، ٩٣٠، ١٦٩٢، ٢٠٧٣، ٢٢٩٦.

٤٨ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٢٠٧٣.

٤٩ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٧٠٤،

٥٠ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٦٦٩ - ٦٧٠، ٦٧٢، ٧٣٧، ٧٣٥، ١٦٠٣، ١٦٦٦، ١٧٠٢، ١٧١٣، ١٧٨٣،

١٨٩١، ٢١٥٣.

٥١ الملاحق - اميرداغ / ٣٤٤

٥٢ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٧٣٤-٧٣٥، ص ١٥١٣.

٥٣ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٧٣٤-٧٣٥، ص ١٥١٣.

٥٤ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٢١١، ١٤٢٥، ١٦١٢.

٥٥ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٢٠٤٥.

٥٦ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ١٦

٥٧ الملاحق - اميرداغ / ٢٧٦

٥٨ كليات رسائل النور "بالتركية"، ص ٥٠٣، ١٥٧٤، ٢٠٢٢.

٥٩ الملاحق - قسطنطيني / ٢٠٨

٦٠ الملاحق - قسطنطيني / ٢٠٨

٦١ الملاحق - اميرداغ / ٢٧٦